الباهر في الدولة الاتابكية

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي النعم الباهرة ، والآلاء الظاهرة ، والمنن الزاهرة ، الذي امتن على عباده (بالاهتداء)(١) ، وبتمليك الملوك وتاميرالامراء ، فجعلهم سببا لكف القوي عن الضعيف ، والاخذ للمشروف من الشريف ، نحمده على ما انعم فأجزل ، وأحسن فأفضل ، ونصلي على (سيدنا محمد وعلى آله وصحبه) .

أما بعد : والذي غمرنا من إنعام هذه الدولة العزيزة القاهرة (٢) ، والايام الاتابكية الزاهرة ، وشملنا من إحسانها ، وأنالتنا من عز سلطانها ، فقد اشتهر خبره ، وطاب مخبرة ، وطار ذكره في الافاق ، وتحدثت به الرفاق ، لم يخل من مبرة تسديها ، ونعمة توليها ، ودرجة في العلا ترفع بضبعنا اليها ، ومرتبة في الفخار تشرف بنا عليها ، وحالة من القرب تتضاءل دونها درجات المقربين ، ومنزلة من الوثوق بنا تقاصر عنها منازل المخلصين . وكان اكثر الموالى السعداء ـ قدس الله أرواحهم ـ إنعاما علينا ، وإحسانا إلينا ، المولى السعيد الملك العادل نور الدين ارسلان شاه(٣) رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم في الاخرة نزله ومثواه .

وألبس الله هاتيك العظام وإن
بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مثوى قبورهم روحا وريحانا

فانه طال ما انعم علينا وأعطانا ، ووصلنا وحبانا ، وقربنا واصطفانا ، وإلى أعلى مراتب الكرامة أعلانا ، مازال يوالينا الجميل ، ويولينا الجليل ، ويقربنا الى حضرته العلية ، ويدنينا من سدته السنية ، وباسراره يخصنا ، ولمشورته يستخلصنا ، لم يخل يوما من بر رغيب ، وإنعام لذفاسته غريب ، وكان ما يمدنا به من

طوله بحرا ، يقذف بالغنى ، ويجود بما لايبلغه المنى . فلهـذا كانت حياتنا من سيب أنعمـه غدق الحياض ، مـونقة الرياض ، ولم نزل نقابل قديم إنعامهم وحـديثه بـاخلاص الدعاء ، وصـدق العبـودية والولاء ، وإظهار الشكر والثناء ، ونصحه بمحضه ، ونؤدى مسنونه ومفترضه . كل ذلك صادر عن نيات في العبودية صادقة ، وطويات في الولاء غير مماذقة . وكنت عازما على أن أدون أخبـارهم ، وأجمـع آثارهم ، وأذكر ما من الله سبحانه على الاسـلام والمسـلمين ومـا حفظ من ثغورهم بجلادهم ، وما صب بهم على الفرنج من العـذاب بايديهم ، واستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخلد محاسن اعمالهم على ممر الدهور ، وتعاقب السنين والشـهور ، جـزاء لاحسـانهم المستمر ، وطولهم الثابت المستقر ، وكانت الاعذار تحول بيني وبين ما أؤمله من هذا الغـرض ، والعـوائق تحيل جـواهر أمـكاني الى العرض ، ولما استاثر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين ـ تغمده الله الكريم برضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه ـ وقام بالملك بعه ولده المولى المالك الملك القاهر العادل العـالم المؤيد المنصـور ، عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ابو الفتح مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مـودود بـن زنكي بـن آقسـنقر ، ناصر أمير المؤمنين ـ نسب كأن عليه من شـمس الضـحى نورا ، ومـن فلق الصباح غمورا ، لازالت الاقدار جارية على وفق اختياره ، ومقتضى إيثاره ، ولابرحت الحوادث عن جنابـه الشريف مصروفـة ، وأعين الكوارث عن دولته القاهرة مطروفة ـ ومـلأ ذلك الدسـت ، وشرف ذلك الصدر ، وظهرت هذه الشمس بعد أفول ذلك البدر ، ولاغرو إذا أشبه الوالد الولد ، وقام الشبل في عزيمة الاسد :

وأنت من القوم الذين هم هم
إذا زال منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب
بدا كوكب تأوي إليه كواكبه
أضاءت لهم احسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

- ٦٣٥٩ -

وما زال منهم حيث كانت مهالك
تسير المنايا حيث سارت كتايبه

وحيث كانت الحال هذه ، تجدد ذلك العـزم ، واحببـت أن أجلو مناقب الموالي الملوك السعداء من آبائه عليه ، وأزف عقيلة محاسنهم إليه ، وأذكر مـن مشـاهدهم في نصرة الدين ، وذبهـم عن حـوزة المسلمين ، ما انتهى اليه علمي ، وأثبته قلمي : شعر

أخبار قوم بذوا وما نقضوا
فالذكر يحيا وإن هم قبضوا
جادوا فما قصرت اكفهم
عن غاية في الندى ولا عرضوا
وانتهزوا فرصة التمكن إذ
تصوروا أن مكثها عرض
في دولة القاهر الملك عز الـ
ـدين عن كل من مضى عوض

قال : ليعلم قدر نعمة الله تعالى عنده أولا وآخرا ، ويقتدى بافعالهم واردا وصـادرا ، وليتيقنن أنه لم يكن لاحـد مـن الملوك المتقـدمين والخلفاء الراشدين ، منقبة دينية ودنيوية وتجربه في حفـظ المـمـالك والرعايا شرعية وسياسية ، إلا وفي بيته الشريف ـ ثبت الله تعالى قواعده ، وشد من عزه معاقده ـ ما يضاهيها ، وظهـر عنهـم مـا يماثلها ويناويها ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضـل العظيم(٤) . لابل والله من قاس غيرهم بهم قاس الثمد الى البحر ، والمخشلب(٥) إلى الدر ، والهشيم بخضرة الربيع ، والارض الجرز (٦) بنضرة الروض المريع ، ولكان القائل إياهم أراد بقوله :

لم تحمل الارض ملوكا مثلهم
ولا اظلتها السماوات العلى

معاد كل راغب وراهب
إذا أتى ديارهم ألقى العصى
لاينطق العوراء في ناديهم
ولا يحلون الى الجهل الحبى
لايصطلى بنارهم عند اللقا
ويصطلى بنارهم عند القرى
هم النجوم طالع وأفل
يعلولهم غرس إذا غرس ذوى
هم الجبال امتنعت أن ترتقى
هم البحور ليس يعلوها القذى
إن سئلوا لم يبخلوا أو عاهدوا
لم يغدروا أو ذكروا طاب الثنا

ونقلت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى ، فانه كان راوية حسناتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فاتني كثير مما سمعته منه ، لانني جمعت هذا القدر من حفظي بعد وفاته ، ولم أثبته بقلمي في حياته ، ومع هذا فانني تعمدت ترك الاكثار ، لميل الناس في زماننا الى الاختصار ، وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه ، لانه اول من ملك منهم فيما علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده المولى الشهيد عماد الدين زنكي قدس الله روحه ، ولم اذكر أحدا غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة خليفة واستخلاف آخر ، وموت سلطان سلجقي وولاية غيره ، إذ الضرورة تدعو إليه ، وبالله التوفيق وهو المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

في ذكر ابتداء حال قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه

قال صاحب التاريخ(٧) . كان قسيم الدولة تركيا من اصحاب

السلطان جلال الدولة ركن الدين(٨) ملكشاه بن الب ارسلان واترابه ، وممن ربي معه في صغره وصحبه الى حين كبره ، فلما افضت السلطنة بعد أبيه إليه ، وأفاضت تاجها عليه ، رعى لقسيم الدولة صحبته ، فجعله من اعيان امرائه ، وأخص أوليائه ، فصادف الاحسان أهله ، فرفع قدره واعلى محله ، واعتمد عليه السلطان في مهماته ، وافضى اليه باسراره في خلواته وجلواته ، ووثق به وثوقا حسده عليه سائر امرائه واجناده ، لما راى من شجاعته وحزمه وسداده ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والايناس ، وزاد قدره علوا الى أن صار يتقيه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان ، وتمكنه من المملكة بعلو المنصب وكثرة الاعوان ، فاشار على السلطان بان يوليه مدينة حلب واعمالها ، ويحكمه في عساكرها وامـوالها ، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد الشامية ، وكان قصده أن يتخذ عند قسيم الدولة يدا ، ويبعده عن خدمة السلطان . ومن أعظم الدلائل على علو منزلته وسمو مرتبته لقبه ، وهو قسيم الدولة ، وكانت الالقاب حينئذ مصونة لاتعطى الا لمستحقيها ، حتى ان السلطان ـ مع جلالة قدره ـ لم يكن يعرف الا بجلال الدولة ولم يكن لقبه في الدين مشهورا . وكان قسيم الدولة ايضا يقف الى جانب تخت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه احد ، وصار ذلك ايضا لعقبه من بعده . وهكذا كان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي رضي الله عنهما يقف

عند السلطان غياث الدين مسعود ، ولما توجه المولى السعيد شرف الدين ابن المولى المعظم قطب الدين قدس الله روحهما الى همذان ـ وبها حينئذ السلطان الب ارسلان بن طغرل بن محمد ، واتابكه البهلوان ، هو أخو السلطان لأمه ، والبلاد له وبحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه ـ وكان البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان عن مقامة ، وقال لشرف الدين : هذا لكم من قديم الزمان ليس لاحد غيركم أن يقف فيه مع حضوركم وكل هذا يدل على ماذكرناه من جلالة قدر قسيم الدولة وعلو محله .

ذكر مسير قسيم الدولة

مع فخر الدولة بن جهير الى الموصل بامر السلطان ملكشاه

في سنة سبع وسبعين واربعمائة ، سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة الى ديار بكر ليتملكها ويجلي عنها بني مروان على ما ذكرناه في المستقصى في التاريخ ، وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير - وكان زوج ابنة نظام الملك - الى الموصل ، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي ، وسير معه جيشا عظيما ، وجعل المقدم على الجيش قسيم الدولة اقسنقر ، وتقدم الى عميد الدولة ليكون فعله في حروبه وحصاره برأي قسيم الدولة ، لمعرفته بتدبير الجيوش وحضر البلاد وشجاعته في حروبه كلها ، فساروا نحو الموصل ، فلقيهم في الطريق الامير أرتق بن أكسب التركماني - جد ملوك الحصن (٩) وماردين يومنا هذا - ومعه خلق كثير من التركمان فاستصحبوه معهم - وكان مشهورا بالعقل والدين - فلما وصلوا الى الموصل حصروها وضيقوا على من بها وأرسل أرتق الى من بها يشير عليهم بالدخول في طاعة السلطان وترك العصيان عليه ، وخوفهم عاقبة فعلهم إن امتنعوا واصروا على الخلاف ، فقبلوا نصحه واذعنوا له واطاعوا وسلموا البلد ، فأخذ عميد الدولة ما كان به من مال شرف الدولة واهله وذخائره . وكان السلطان عازما على اخذ جميع البلاد التي لشرف الدولة واستئصال ملك العرب ، فأتاه الخبر بخروج اخيه تكش عن طاعته بخراسان واجتماع العساكر عليه ، فارسل مؤيد الملك بن نظام الملك الى شرف الدولة فطيب قلبه ، وذكر له ان أباه نظام الملك قد شفع فيه الى السلطان فأجاب شفاعته ، وامره بالمسير معه الى خدمة السلطان ، فسار صحبته ولقي السلطان بالبوازيج (١٠) فخلع عليه ورد عليه الموصل وجميع ما اخذ له من اهل ومال ، وسار السلطان نحو خراسان فظفر باخيه .

ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت انطاكية للروم قد ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . ولم يزالوا بها الى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وكان صاحبها حينئذ روميا يسمى الفردروس (١١) فسار عنها الى بلاد الروم ، فكتب اهلها الى سليمان بن قتلش - وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها - وراسلوه ليحضر عندهم ليسلموا إليه أنطاكية ، فسار إليهم وتسلم البلد وملكه ، وقتل من أهله خلقا كثيرا ، وأخذ منهم مالا عظيما . وكان لشرف الدولة على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها منه كل سنة ، فلما ملك البلد سليمان ، أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ماكان يأخذه من الروم ، وتهدده وخوفه عاقبة ، معصية السلطان ، فأعاد الجواب : إنني في طاعة السلطان وهذا الفتح بسعادته ، والخطبة والسكة له في ، ولست بكافر حتى أعطيك ماكنت تأخذه من الروم ، فأعاد شرف الدولة الجواب يتهدده ويلزمه بالمال ، فأخذت سليمان الحمية فسار إلى بلد شرف الدولة ونهبه ، فقصده الذين نهبهم واستغاثوا إليه ، فقال لهم : صاحبكم أحوجني إلى مافعلته ، وإلا فليس من عادتي اخذ مال مسلم ورد عليهم ماأخذ منهم.فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة أبيهم وسار نحو أنطاكية ، فلقيه سليمان في أول أعمالها ممايلي حلب في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فاقتتلوا أشد قتال فانهزمت العرب والتركمان عن شرف الدولة فاضطر إلى الهزيمة فقتل منهزما وذاق عاقبة بغيه وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج ومابينهما من البلاد الفراتية : كهيت ، والانبار وغيرهما ، وملك الموصل ، وديار ربيعة ، والجزيرة بأسرها ، وملك مدينة حلب . وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة.ولما قتل شرف الدولة قصد سليمان مدينة حلب فحصرها فارسل اليه اهلها : اذا انفصل الامر بينك وبين تاج الدولة تتش ، سلمنا اليك البلد . وكان تاج الدولة له

مدينة دمشق ونواحيها قد اقطعه اياها اخوه السلطان ملكشاه ، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليملكها ، وكان معه أرتق بن أكسب ـ وقد اقطعه تاج الدولة ابيت المقدس ـ فلما ارسل اهل حلب الى سليمان ماذكرناه ، سار نحو تاج الدولة فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان ، وانجلت الحرب عن هزيمة عسكر سليمان ، وثبت هو فقتل . وسار تاج الدولة الى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة ، فكاتب اهلها السلطان ملكشاه ليسلموها اليه وهو بالرها ، وكان سبب مسيره اليها ، ان ابن عطير الذميري كان قد باعها من الروم بعشرين الف دينار وسلمها اليهم ، فدخلوها واخربوا المساجد واجلوا المسلمين عنها ، فسار ملكشاه اليها هذه السنة فحصرها وفتحها واقطعها الامير بزان ، فلما اتاه رسل اهل حلب بالتسليم اليه ، سار اليهم فلما بلغ خبر مسيره الى تاج الدولة رحل عن حلب الى دمشق ، ووصل السلطان الى حلب ، وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي ـ وهو ابن عم شرف الدولة ـ فسلمها الى السلطان بعد قتال ، واعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر ، وكان قد ملكها هذه السفرة من صاحبها جعبر القشيري وكان شيخا كبيرا اعمى ، فبقيت بيد سالم واولاده الى ان اخذها منهم الملك العادل نور الدين ابو القاسم محمود بن زنكي رضي الله عنهما ، على ماذكره ان شاء الله تعالى . فلما ملك السلطان حلب ، ارسل اليه الامير نصر بن علي بن المقلد بن مذقذ الكناني صاحب شيزر ر ودخل في طاعته وسلم اليه لاذقية ، وفامية ، وكفر طاب فاجابه ملكشاه الى الصلح وترك قصده .

ثم إن نظام الملك اشار على السلطان بتسليم حلب واعمالها ، وحماه ، ومنبج ، ولاذقية ، ومامعها الى قسيم الدولة اقسنقر فأقطعه الجميع ، فبقيت بيده الى ان قتل سنة سبع وثمانين واربعمائة ، على ماذكره ان شاء الله تعالى .

واقطع السلطان مدينة انطاكية ياغي سيان ، وهو صاحب صلاح

الدين محمد الياغسياني الذي صار امير حاجب المولى الشهيد عماد الدين زنكي .

ولما استقر قسيم الدولة في الشام ، ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده ، وان السلطان استدعاه الى العراق فقدم اليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها ، ولما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشا الى تكريت فملكها .

معرفة حسنة

يذكر اهل التواريخ انه ليس من مشهور العرب من قتل هو وابوه وجده وجد أبيه ، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ، فان عبد الله قتله الحجاج ، والزبير رضي الله عنه قتل يوم الجمل ، وقتل العوام وخويلد في الجاهلية ، وليس مشهور الترك من هو هكذا ، غير قليج ارسلان فقد قتله جاولي سقاووا بالخابور غريقا ، وهذا سليمان قتله تاج الدولة تتش كما ذكرناه . واما ابوه قتلمش بن ارسلان يبغو بن سلجق فقتله صاحب مدينة استوا (١٣) لانه جمع خلقا كثيرا من الاتراك وخرج عن السلطان الب ارسلان ، فلقيه صاحب استوا فقاتله ، فانهزم قتلمش وسقط عن فرسه فمات . واما ابوه ارسلان يبغو بن سلجق ، فان صاحب غزنة من اولاد محمود بن سبكتكين (١٤) اخذه فقتله ، واخذ ابن قتلمش حتى خلصه الملك داود والد السلطان الب ارسلان لما ملك خراسان .

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، قتل الوزير نظام الملك ابو علي الحسن بن اسحاق ، قتله صبي ديلمي بعد الافطار ،

وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والامراء والفقراء وغيرهم من اصناف الناس ، وحمل في محفة لنقرس كان به الى خيمة الحرم ، فلقيه صبي ديلمي مستغيثا به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله ، وقتل الصبي ايضا ، فعدمت الدنيا واحدها الذي لم تر مثله . وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين ، انه رأى النبي صلى الله وعليه وسلم في المنام كانه أتاه واخذه من محفته ، فاستبشر نظام الملك بذلك ، واظهر السرور به ، وقال : هذا أبغي واياه اطلب ، وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره .

وكان عالما ، فقيها ، دينا ، خيرا ، متواضعا عادلا يحب اهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان اقرب الناس منه واحبهم اليه العلماء ، وكان يناظرهم في المحافل ، ويبحث عن غوامض المسائل ، لانه اشتغل بالفقه في حداثته مدة .

واما صدقاته ووقوفه فلا حد لها ، ومدارسه في العالم مشهورة ، لم يخل بلد من شيء منها ، حتى جزيرة ابن عمر - التي في زاوية من الارض لايؤبه لها - بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهي الان تعرف بمدرسة رضي الدين .

واعماله الحسنة ، وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ ، لم يسبقه من كان قبله ولاادركه من كان بعده ، رحمه الله ورضي عنه .

وكان من جملة عباداته انه لم يحدث الا توضا ، ولاتوضأ الا وصلى. وكان يقرأ القرآن حفظا ، ويحافظ على اوقات الصلوات محافظة لايتقدمه فيها المتفرغون للعبادة ، حتى انه اذا اغفل المؤذن أمره بالاذان ، واذا سمع الاذان امسك عن كل ماهو فيه ، واشتغل باجابته ثم الصلاة .

واما ابتداء امره ، فانه كان يحب التصرف ، فاتصل بامير كان صاحب بلخ يعرف بالامير ياخر - وكان مقدم عسكر الملك جغري

بك داود جد السلطان ملكشاه – وكان ياخر لايعطيه الا مايقوم بـه حسب ، وفي اخر كل سنة يصادره بما يفضل معه فضجر من هذه الحال ، واخفى اولاده – وكان له فخر الملك ومـؤيد الملك – وركب فرسه وهرب . وكان فرسه بطيئا ، فدعا الله تعالى ان يرزقه فـرسا يخلصه عليه ، فلم يسر الا قليلا حتى لقيه تركماني تحته فـرس جيد فسلمه اليه واخذ فرسه عوضه ، وقال له : ياحسن اذكر هذه . قـال نظام الملك : فلما ركبت الفرس قويت نفسي ، وعلمت ان السعادة قـد جـاءت ، ووصـلت الى مـرو ، ودخلت على الملك داود فـاخذ بيدي وسلمني الى ولده الملك عضد الدولة الب ارسـلان وقـال : تسـلمه واتخذه والدا لاتخالفه . ثم ان الامير ياخر سأل عني فلم يجدني واخبر بهربي ، فسار بنفسه في طلبـي حتـى دخـل على الملك داود فطلبني منه ، وقال : اخذ مالي وهرب ، فقال له داود : حـديثك مـع ولدي ألب أرسـلان ، فلم يجسر يخـاطبه فيه . ووزر نظـام الملك للسلطان الب ارسلان قبل ان يلي السلطنة في حياة عمـه السـلطان طغرلبك ، فلما توفي طغرلبك سـعى نظـام الملك في أخـذ السـلطنة لصاحبه الب ارسـلان ، وقـام المقـام الذي تعجـز عنه الجيوش والكثرة ، واستقرت السلطنة له ، وبقي معه الى ان تـوفي . ثـم وزر بعده لابنه السلطان ملكشاه الى ان قتل . وكان قد تحكم عليه الى حد لايقدر السلطان على خلافه لكثرة مماليكه ومحبة الامراء والعسـاكر له ، وميل عامة الناس وخاصتهم اليه بحسن سيرته وعدلـه.

ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسـلان رضي الله عنه

في منتصف شوال سنة خمس وثمانين واربعمائة توفي السلطان ركن الدين ملكشاه رضي الله عنه . وسبب وفاته انه اكل لحم صيد فـاكثر منه ، فأخذته حمى حادة فتوفي منها (١٥) وكان مولده في جمادى الاولى سنة سبع واربعين واربعمائة ، فكان عمره ثمـانيا وثـلاثين سنة وستة اشهر . وكان ملكه نحو عشرين سنة .

وكان احسن الناس صورة ومعنى ويكفيه ان من جملة حسناته ، نظام الملك ، وكانت سعادتهما متقاربة . حكى لي والدي رحمه الله تعالى – ثم اني رأيت ماحكاه بعد ذلك مذكورا في كتب التاريخ – قال : ان السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك في شيء فعله بعض أولاده ، وقال له في جملة عتبه : ان كنت شريكي في الملك فعرفني ، وان كنت وزيري فاسلك مايسلكه الوزراء والا اطبقت دواتك وعزلتك ، فقال للرسول : قل للسلطان عني : ان كنت ماتعلم انني شريك فاعلم ، واذكر مافعلت معك حين خرج عليك اعمامك واخوتك ونازعوك في الملك وكادوا يقهرونك ، فتوليت ردهم بنفسي ، وقمت المقام الذي تعلمه حتى صفا لك الملك والسلطنة ، وذكر له عدة مواقف جزع فيها ملكشاه وخاف ، فردها نظام الملك بالرأي والحرب ، فان كان هذا كلامه ذلك الوقت . واما قوله انه يطبق الوقت دواتي فقل له : اعلم ان هذه الدواة متعلقة بزر قلنسوته التي على رأسه ، فمتى اطبق هذه سقطت تلك.فيقال ان هذا كان سبب قتل نظام الملك ، وان السلطان وضع ذلك الديلمي حتى قتله ، وصح قول نظام الملك ، لما طبقت دواته لم يعش السلطان غير خمسة وثلاثين يوما ومات . وكان هذا كالكرامة لنظام الملك . وكانت مملكة السلطان ملكشاه قد اتسعت اتساعا عظيما ، اطاعته البلاد جميعها وملكها ، وخطب له من حدود الصين الى الداروم من ارض الشام ، واطاعه اليمن والحجاز ، وكان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة ، واطاعه صاحب طراز واسبيجاب ، وكاشغر ، وبلاساغون وغيرهما من الممالك البعيدة ، وملك سمرقند وجميع ماوراء النهر . ثم ان صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان اليه ، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه ، ولم يزل حتى ظفر به واحسن اليه واستصحبه معه الى اصفهان . وعمل السلطان من الخيرات وابواب البر كثيرا ، منها مااصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة ، وحفر من الانهار ، وبنى مدرسة عند قبر الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة . وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر

ثم سار الى نصيبين فحصرها ، فسبه اهلها ففتحها عنوة وقهرا ، وقتل بها خلقا كثيرا ، واستناب بها محمد بن شرف الدولة العقيلي .

وراسل ناصر الدولة ابراهيم بن قريش بن بدران - وهو صاحب الموصل حينئذ - يأمره بالخطبة له وان يعطيه طريقا الى بغداد ، فامتنع عليه ، وسار كل واحد منهما الى صاحبه ، فالتقيا بالمضيع من بلد الموصل ، وكان على ميمنة تاج الدولة ، قسيم الدولة اقسنقر ، وعلى ميسرته بوزان ، فحملت العرب على بوزان فانهزم ، وحمل قسيم الدولة على العرب مما يليه فهزمهم ، أسر ابراهيم وجماعة من أمراء العرب ، فقتلهم تاج الدولة صبرا وملك بلادهم جميعها ، الموصل وغيرهما .

وسار في ربيع الآخر من هذه السنة الى ميافارقين فملكها وسائر بلاد ديار بكر .

ثم سار منها الى اذربيجان فقصده الملك ركن الدين بركياروق - وكان قد ملك كثيرا من البلاد منها : الري وهمذان ومابينهما - فلما تقارب العسكران ، قال قسيم الدولة لبوزان : انما اطعنا هذا الرجل لننظر مايكون من أولاد صاحبنا ، والان فقد ظهر بركياروق ، والرأي والمروءة تقتضي بأننا نقصده ونكون معه ، ففارقا تاج الدولة وسارا إلى بركياروق وصار معه ، فلما رأى تاج الدولة ذلك ، رجع الى الشام ، وأقام قسيم الدولة عند بركياروق ، فخرج عليه خاله اسماعيل بن ياقوتي ثم اطاعه ، فخلا به قسيم الدولة وبوزان وبسطوه في الحديث فاعلمهم انه يريد السلطنة وقتل بركياروق ، فوثبا عليه فقتلاه محافظة على صاحبهما ، ثم امرهما ركن الدين بالعود الى الشام ليمنعا تاج الدولة عن البلاد ان قصدها فعادا .

مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبيع وبنى مثلها بسمر قند ايضا . ولما مات ضبطت زوجته تركان خاتون العسكر ، وكتمت موته فلم يلطم احد وجها ، ولم يشق عليه ثوب ، ولم يسمع بسلطان مثله توفي فلم يصل احد عليه . ولم يجلس اصحابه للعزاء سواء . وارضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدهما محمود ، وعمره اربع سنين ، وسارت الى اصفهان .

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه - وهو الاكبر - فطلب السلطنة فأخذها وتوفي محمود . ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاه ، فنازع اخاه بركياروق ، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت حوالي اثنتي عشرة سنة ، الى ان توفي بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد .

وفي مدة تلك الحروب ظهر الفرنج الى الساحل ، وملكوا انطاكية اولا ثم غيرها من البلاد ، وقد استوفينا ذلك في المستقصى في التاريخ

ذكر صلح قسيم الدولة اقسنقر

وتاج الدولة تتش بن الب ارسلان وما شهده من الحروب معه

قد ذكرنا ان السلطان ملكشاه كان قد اقطع اخاه تاج الدولة مدينة دمشق واعمالها وماجاورها كطبرية والبيت المقدس وغيرهما ، فلما توفي ملكشاه واختلف اولاده وهم صغار ، جمع تاج الدولة العساكر وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة اقسنقر ، فعلم قسيم الدولة ان اولاد صاحبه صغار ، وان الملك لايستقيم لهم لصغرهم والخلف الواقع بينهم ، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة ، فصالحه وخطب له بحلب ، وراسل نور الدين بوزان صاحب حران وياغي سيان صاحب انطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة فملكها ، وخطب لنفسه بالسلطنة في محرم سنة ست وثمانين واربعمائة .

ذكر وفاة امير المؤمنين المقتدى بامر الله وولاية ابنه المستظهر بالله

في المحرم من سنة سبع وثمانين واربعمائة ، توفي الامام المقتدي بامر الله امير المؤمنين رضي الله عنه فجأة . واسمه ابو القاسم عبد الله بن الامير محمد بن القائم بامر الله . وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام .

وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة اشهر .
وانشأ ببغداد عدة محال ، منها : البصلية ، والبساتين التي كانت بباب الازج ، والحلبة ، والاجمة ، ودرب القيار ، والمقتدية ، وخرابة ابن جردة ، والخاتونية .

وهو استوزر فخر الدولة ابا نصر محمد بن محمد بن جهير ، وهو من الموصل .

وكانت خلافته بعهد من جده القائم بامر الله امير المؤمنين ، وامه تركية .
وكان لين الجانب ، كثير الحلم . وعاش وادعا مرفها .

وتوفي وقد علم على منشور السلطان بركياروق بالسلطنة . وكتمت القهر مانة شمس النهار موته ، واحضرت الوزير واعيان الدولة وجددت البيعة لولده ابي العباس احمد المستظهر بالله امير المؤمنين ، فلما بايعوا اظهرت وفاة المقتدي .

ولما بويع المستظهر بالله ارسل الى السلطان بركياروق لاخذ البيعة - وكان ببغداد - فانفذ بركياروق وزيره عز الملك بن نظام الملك والامير برسق وكوهرائين شحنة بغداد ، فبايعوا ، ثم بايع هو ، فلما تمت بيعة السلطان احضر الغزالي والشاشي وغيرهما من

العلماء فبايعوا . ثم ارسل الى غرنة ، وماوراء النهـر ، وكرمـان ، والشام لاخذ البيعة .
ولما استخلف اقر عميد الدولة بن جهير على وزارته .

ذكر نسب المستظهر بالله

هو المستظهر بالله أبو العباس أحمد بـن المقتـدي بـأمر الله أبـي القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة محمد بن القائم بـأمر الله أبـي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفـر بـن المعتصـم أبـي اسحاق بن محمد الرشيد أبي جعفر هارون بن المهدي أبي عبـد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبـد الله ابن العباس بن عبـد المطلب رضي الله عنهـم ، بينه وبين العبـاس عشرة خلفاء ووليا عهد ، وأربعة لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد .

فاما الخلفاء : فـالمقتدى ، والقـائم ، والقـادر ، والمقتـدر ، والمعتضد ، والمتوكل ، والمعتصم ، والرشيد ، والمهدي ، والمنصور .
واما وليا العهد : فالذخيرة محمد بن القائم - وهو والد المقتدي بامر الله - والموفق الناصر لدين الله ابو احمد بن المتوكل - وهو جد المقتدر بالله .

واما الذين لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهـد : فـاسحاق - والد القادر بالله - ، ومحمد - والد المنصور - ، وابوه علي ، وعبد الله بن العباس .

وقد ولى الخلافة من بنى العباس من غير اباء المسـتظهر سـبعة عشر خليفة ، وهم : ابو العباس عبد الله بن محمد السـفاح - اول خلفاء بني العباس - ، والهادي موسى بن المهدي ، والامين محمـد والمأمون عبد الله ابنا الرشيد ، والواثق - وهو أخو المتوكل . ثـم

المستعين بالله احمد بن محمد بن المعتصم - وهو ابن اخي المتوكل - ثم المهتدي محمد بن الواثق بن المعتصم . وولي المكتفي علي بن المعتضد بالله وأخوه القاهر بالله . ثم ولي الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وأخوه المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم . ثم ولي المكتفي بالله عبد الله بن المكتفي بالله بن المعتضد بالله . ثم ولي المطيع لله ابو القاسم الفضل ، وولده الطائع لله ابو بكر عبد الله .

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه

في جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتل قسيم الدولة آقسنقر وبوزان صاحب حران . وكان سبب قتلهما ، ان تاج الدولة تتش لم يزل يجمع العساكر بعد عوده من اذربيجان الى الان ، فكثر جمعه ، وعظم حشده ، وسار عن دمشق نحو حلب ، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وامدهما السلطان ركن الدين بركياروق بالامير كربوقا - وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل - فلما اجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق ، تقدموا نحوه والتقوا برويان على نهر سبعين بالقرب من تل السلطان ، بينه وبين حلب نحو ستة فراسخ ، واقتتلوا واشتد القتال ، فخامر بعض عساكر قسيم الدولة وانهزموا وتبعهم الباقون ، وثبت قسيم الدولة فاخذ أسيرا وأحضر عند تاج الدولة ، فقال له : لو ظفرت بي ماكنت صنعت . قال : كنت اقتلك . قال : فانا احكم عليك بما كنت تحكم علي فقتله صبرا . وسار نحو حلب ، وكان قد دخل اليها الامير كربوقا وبوزان فحفظاها منه ، ولج في قتالها حتى ملكها واخذهما اسيرين ، وأرسل الى حران والرها ليملكهما - وكانتا لبوزان - فامتنع من بهما من التسليم لبوزان اليه - فقتل بوزان وانفذ رأسه وتسلم البلدين . واما كربوقا فانه أرسله الى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل ابيه تاج الدولة .

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظا لهم . وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وامن واسع ، وكان شرط على أهل كل قرية في بلاده ، متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس ، غرم أهلها جميع مايؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته .

واما وفاؤه وحسن عهده فيكفيه فخرا انه قتل في حفظ بني صاحبه وولي نعمته .

ذكر حال ولده عماد الدين زنكي بعد والده رضي الله عنهما

لما قتل قسيم الدولة اقسنقر ، لم يخلف من الاولاد غير ولد واحد ، وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين ، فاجتمع عليه مماليك والده واصحابه ،وفيهم زين الدين علي ، وهو صبي ايضا .

ثم ان الامير كربوقا خلص من السجن بحمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتوجه الى حران – وقد اجتمع معه عسكر صالح – فملكها . ثم صار الى نصيبين فملكها ايضا . ثم الى الموصل فملكها وازال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي ، فانه كان مالكا لها وسار نحو ماردين فملكها ايضا .

وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدين بركياروق فلما ملك البلاد احضر مماليك قسيم الدولة اقسنقر وامرهم باحضار عماد الدين زنكي . وقال : هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده ، فاقطعهم الاقطاعات السنية وجمعهم على عماد الدين زنكي ،

واستعان بهم في حروبه وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها ، فلم يزالوا معه .

ثم ان كربوقا توجه إلى آمد وصاحبها من امراء التركمان ، فاستنجد صاحبها بمعين الدولة سقمان بن أرتق - جد صاحب الحصن يومنا هذا - ، فجمع من التركمان خلقا كثيرا وسار نحو امد وتصاف هو وقوام الدولة كربوقا ، فرأى كثرة التركمان فخافهم ، فاخذ عماد الدين زنكي وألقاه بين مماليك والده ، وقال لهم : قاتلوا عن ابن صاحبكم ، فحينئذ اشتد قتالهم وحمى الوطيس فهزموا سقمان وأسروا ياقوتي ابن أخيه ، فحبسه كربوقا ثم أطلقه . وكان هذا أول مصاف حضره الشهيد عماد الدين زنكي بعد قتل والده . ولم يزل عماد الدين مع كربوقا الى ان توفي سنة اربع وتسعين واربعمائة .

وملك بعده موسى التركماني من اصحابه ، فلم تطل ايامه وقتل . وملك الموصل شمس الدولة جكرمش - وهو ايضا من مماليك السلطان ملكشاه واخذ الشهيد عماد الدين وقربه واحبه ، واتخذه ولدا لمعرفته بمكانة والده ، فبقي الى ان قتل سنة خمسمائة . ولاجرم ان الشهيد قدس الله روحه ، رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرهما من البلاد ، فانه أخذ ولده ناصر الدين كوري ، فاكرمه وقدمه واقطعه اقطاعا كثيرا ، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهرا .

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاووا فاتصل به عماد الدين زنكي وقد كبر فظهرت عليه امارات السعادة والشهامة ، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد ، وكان جاولي قد عبر الى الشام ليملكه من الملك رضوان ، فأرسل السلطان الى الموصل الأمير مودود وأقطعه اياها سنة ثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه الشهيد وغيره من الأمراء ، وفيهم الأمير التونتاش الأبري ، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك

أكرمه وأعظمه وأكثر اقطاعه ، فحكى لي والدي قال : كنت أراه الى جانب المولى الشهيد لايتقدم عليه أحد من الأمراء ، وله عقب بالموصل الى الآن في خدمة الدولة القاهرة .

فلما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له ذلك ، مضافا الى منزلة أبيه ، ولما رأى منه من العقل والشجاعة ، فزاد في اقطاعه وشهد معه حروبه ، فمما بلغني منها ، ان الأمير مودودا سار الى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعا من شبختان وكانت للفرنج وقتل من بها منهم ، ثم سار الى الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها ، وكانت عقيلة ومكرمة وفضيلة قد ادخرها الله سبحانه وتعالى للمولى الشهيد .

فاستوضحت سبل الآمال حايدة
عن الملوك الى أعلاهم حسبا

ابهرهم فضلا ، أغمرهم بذلا
أفخرهم أبدا فعلا ومنتسبا

أشم أشوس مضروبا سرادقه
على الممالك مرخى دونها الحجبا

ممتنع العز ، معمور الفناء به
مظفر العزم ؛ والآراء منتخبا

من معشر طالما شبوا بكل وغى
نارا يظل أعاديهم لها حطبا

ثم ان الأمير مودودا رحل عنها وعبر الفرات الى الشام ، فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ولم يبلغ منها غرضا ، ثم سار عنها الى معرة النعمان فحصرها ، وجاء اليه الأمير طغدكين صاحب

دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره خاف ان يأخذ منه دمشق فشرع في صلح الفرنج سرا من مودود فصالحوه ، وكانوا قد ضعفوا عن قتال المسلمين لكثرتهم فان السلطان محمدا ، كان قد أمد الأمير مودودا بعسكر مقدمهم الأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وغيرها ، فمرض سكمان واشتد مرضه فعاد ، فأدركه الموت ببالس فأخذ اصحابه تابوته وقصدوا بلاده ، فاعترضهم إيلغازي بن أرتق ليأخذهم ، فصافوه وجعلوا تابوت سكمان في القلب كما كان حيا ، وقاتلوا فظفروا ، وانهزم ايلغازي وعادوا الى بلادهم .

فلما رأى مودود تفرق العساكر ، وصلح طغدكين للفرنج ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج ، ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير الشهيد ، وأذن لعسكره في العود والاستراحة ثم الاجتماع لقتال الفرنج فتفرقوا .

وراسل مودود طغدكين وأصلحه وجمع العساكر وعاد الى الشام ، وحضر عنده اتابك طغدكين وساروا جميعا الى طبرية وحصروها وقاتلوها قتالا شديدا وظهر من أتابك الشهيد رضي الله عنه شجاعة لم يسمع بمثلها فمنها : أنه كان في ذفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهو يظن انهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده ، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رمحه الى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه ، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ويتقدم باقي العسكر فيملكون البلد ، فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما ، فعجب الناس من اقدامه اولا ومن سلامته آخرا ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج .

وجمع الفرنج فرسانهم ورجالتهم وملوكهم وقمامصتهم ، فيهم الملك بردويل صاحب القدس ، وعكا وصور وغيرها ، وجوسلين صاحب تل باشر والرها وغيرها ، فتصافوا ثالث عشر محرم (سنة ٥٠٧) عند بحيرة طبرية ، فظفر المسلمون وانهزم

الفرنج لعنهم الله . ووصلوا الى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به ولم يكن فيه سعة ، فتبعهم المسلمون ، فلما كان من الغد وصل الى الفرنج عسكر قوي من انطاكية وغيرها ، فقويت نفوسهم واحتموا ، وحصرهم المسلمون وهم على رأس جبل والمسلمون في الغور ، وصابروهم ستة وعشرين يوما ، واشتد الحر على المسلمين لمقامهم في الغور ، فرحلوا نحو بيسان ، فنزل اليهم الفرنج وتواقفوا خمسة ايام ، وانقطعت المادة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا الى مرج الصفر ، وأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع الى بلادهم والاجتماع اليه في الربيع ، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها ، فخرج يوما يصلي الجمعة، فلما صلاها وخرج الى صحن الجامع ويده بيد طغدكين ، وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائما فحمل إلى دار طغدكين وأجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لالقيت الله الا صائما فإنني ميت لامحالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله.فقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغدكين فوضع عليه من يقتله .

وكان خيرا عادلا حسن السيرة ، فحدثني والدي رحمه الله تعالى قال : كتب ملك الفرنج الى طغدكين يقول له : ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها ، لحقيق على الله أن يبيدها فلما قتل الأمير مودود ، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعودا الى الموصل ، ثم انه جهز آقسنقر البرسقي في العساكر وسيره الى قتال الفرنج ، وكتب الى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه ، فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي ، وكان قد ظهر عنه من الشجاعة مالا يوصف ، ولا سيما بعد مافعله بطبرية ، فلما اجتمعت العساكر على البرسقي ، سار الى الرها في خمسة عشر الف فارس ، فحصرها وقاتل من بها من الفرنج والأرمن ، فضاقت الميرة عن العسكر ، فرحل الى سميساط وهي ايضا للفرنج ، فأخرب بلدها وبلد سروج وعاد الى شبختان

فأخرب ما فيه للفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وماظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقي الى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة (ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله) (١٧) .

قال : وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ، ومن أعجب مايحكى ان السيل حمل مهدا فيه طفل ، فعلق المهد في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل ، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها ايضا زلزلت اربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه السل ، فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلدا ، وكانت الأراجيف قد كثرت وأكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك ، فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذي الحجة ايس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محمودا - وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة - فلما رآه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره ان يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال : انه يوم غير مبارك - يعني من طريق النجوم - فقال : صدقت ، ولكن على ابيك ، وأما عليك فمبارك هو

فأخرب ما فيه للفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وماظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقي الى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة (ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله) (١٧) .

قال : وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ، ومن أعجب مايحكى ان السيل حمل مهدا فيه طفل ، فعلق المهد في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل ، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها ايضا زلزلت اربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه السل ، فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلدا ، وكانت الأراجيف قد كثرت وأكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك ، فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذي الحجة ايس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محمودا - وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة - فلما رآه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره ان يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال : انه يوم غير مبارك - يعني من طريق النجوم - فقال : صدقت ، ولكن على ابيك ، وأما عليك فمبارك هو

بالسلطنة ، فخرج وجلس على التخت ، ولبس التاج ، وتوفي السلطان محمد من ليلته ، وأظهرت وفاته من الغد ، وقرئت وصيته على ولده يأمره بالعدل والاحسان ، وكان مولد السلطان محمد ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وكان عمره سبعا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وأول ماخطب له بالسلطانة ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عدة مرار ، ولقى من المشاق والأخطار مالم يلقه أحد ، الى أن توفي أخوه السلطان ركن الدين بركيارق فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتمع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة اشهر .

وكان عادلا حسن السيرة ، شجاعا ، واطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ، ومن عدله انه اشترى عدة مماليك من بعض التجار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خوزستان ، فأوصل البعض ومطل بالباقي ، فحضر التاجر مجلس الحكم ، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث اليه ، فأمر من يستعلم حاله ، فلما سأله عن حاجته ذكرها له ، وأعلمه أنه قد حضر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان ليطالب بماله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله ، فعظم عليه وضاق صدره ، وأمر في الحال ان يحضر عامل خوزستان ، ويلزم بمال التاجر ، وألزمه مصادرة على ذلك لئلا يمطل هو ولاغيره بمال يحال عليهم ، ثم انه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيرا : لقد ندمت على تركي الحضور بمجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ، ولم يمتنع أحد عن اداء الحق ، وهذه الفضيلة ايضا مما ذخرها الله تعالى لهذا البيت الشريف الأتابكي ، فان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، فعل ماندم السلطان محمد على تركه ، ولما علم الأمراء وغيرهم (أن) من خلق السلطان محبة العدل واداء الحق وكراهة الظلم ومعاقبة من يفعله ، اقتدوا (به) وأمن الناس ، وظهر العدل .

ثم ان السلطان محمودا أقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر حرب ، انهزم فيها محمودا وعاد الى عمه بغير عهد ، فأكرمه وأقطعه من البلاد من حد خراسان الى الداروم بأقصى الشام ، وهي من الممالك : همذان ، واصفهان وبلد الجبال جميعه ، وبلاد كرمان ، وفارس وخوزستان والعراق وأذربيجان وأرمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مصر وديار ربيعة والشام وبلد الروم الذي بيد أولاد قلج ارسلان ومابين هذه الممالك من البلاد.ورأيت مذشورة بذلك .

ولم يكن لعماد الدين في هذه الحرب أثر ، ولا شهدها ليستقصى ذكرها فلهذا أعرضنا عن شرحها وأشرنا اليها لتعرف .

ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله وخلافة المسترشد بالله

قال ، وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله من تراقى ظهرت به (١٨)

وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام .
وخلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما .
ومضى في ايامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغداد ، وهم : تاج الدولة تتش (١٩) ، وركن الدين بركيارق بن ملكشاه ، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه .

وكان رضي الله عنه كريم الأخلاق ، لين الجانب، مشكور المساعي ، يحب العلم والعلماء ، وصنفت له التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرها .

وكان يسارع الى أعمال البر والمثوبات ، ولايرد مكرمة تطلب منه ، كثير الوثوق الى من يوليه الأعمال ، لايصغي الى سعاية ساع .

وكانت أيامه ايام سرور وأمن للرعية ، وكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره ، واذا تعرض سلطان أو غيره الى أذى أحدهم بالغ في انكار ذلك والزجر عنه .

وكان حسن الخط ، جيد التوقيعات لايقاربه فيها أحد ، تدل على فضل غزير وعلم واسع ، ولما توفي صلى عليه ابنه المسترشد بالله ، ودفن في حجرة كانت له يألفها ، ولما فرغ من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة ، فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية ، وكان المتولي لأخذ البيعة قاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني ، وممن بايعه الشيخ أبو النجيب السهروردي ، ووعظه موعظة بليغة تتضمن العدل والاحسان .

ذكر الحرب بين السلطان محمود واخيه الملك مسعود وما أثر عن عماد الدين فيها

قال: لما ولي السلطان محمود السلطنة ، اقر أخاه الملك مسعود على الموصل مع اتابكه جيوش بك ، فبقي مطيعا لأخيه الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، فحينئذ خرج عن طاعته ، وكان سبب ذلك ان دبيس بن صدقة الاسدي ، كان في عسكر السلطان محمد ، وقد اخذ بلد الحلة منه ، فلما ملك السلطان محمود اقطعه الحلة واعاده اليها ، فلما وصل الى الحلة كاتب الأمير جيوش بك

وحسن له العصيان على السلطان محمود ، ووعده المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود ، وكان غرضه أن يختلفوا ، فينال من التمكن والجاه ، ما ناله ابوه سيف الدولة صدقة فاختلاف السلطانين بركيارق ومحمد ، وقد ذكرناه في المستقصي - وكان الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي الأصفهاني قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وأشار بذلك ايضا ، وكان لجيوش بك مع الموصل ، ولاية اذربيجان ، فلما شرع في جمع الجيوش بلغ ذلك الى السلطان محمود ، فأرسل اليه والى اخيه مسعود يرغبهما ويعدهما الاحسان أن عاودا الطاعة ، ويتهددهما أن أصرا على المعصية ، فلم يرجعا ، وقوي طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود ، وأظهرا العصيان ، وخطب للملك مسعود بالسلطنة ، وكان عماد الدين زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ، ويحذرهم عاقبة العصيان ، فلم يرجعا الى قوله ، وبلغ قوله الى السلطان فعرفه له .

ثم إن الملك مسعودا وجيوش بك سارا في العساكر نحو السلطان ، ينتهزان الفرصة بقلة عسكره وتفرقهم ، فجمع من قرب اليه من عساكره فبلغت عدتهم نحو خمسة عشر الف فارس ، والتقوا عند عقبة اسد آباد في ربيع الأول ، فدام القتال بينهم الى الليل ، ثم انهزم الملك مسعود وجيوش بك ومن معهما ، واسر جماعة من امراء عسكرهما والأعيان ، منهم الأستاذ ابو اسماعيل الطغرائي وزير مسعود ، فقتله السلطان وقال: قد صح عندي فساد اعتقاده ودينه ، وكان قد جاوز ستين سنة .وكان حسن الكتابة جيد الشعر ، فمن شعره :

تمنيت ان القاك في الدهر مرة
فلم أك في هذا التمني بمرزوق
سوى ساعة التوديع دامت فكم مني
أنالت وما قامت بها آملا سوقي

فياليت ان الدهر كل زمانه
وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود ، فإنه سار منهزما إلى مكان بينه وبين الوقعة اثني عشر فرسخا فاختفى فيه ، وارسل ركابيا كان معه إلى أخيه يطلب الأمان ، فأرسل إليه البرسقي بأمانة وتطييب قلبه ، فأحضره معه عند السلطان ، فأمر الناس كلهم بلقائه وأكرمه واحسن اليه ، ولما لقيه بكى كل واحد منهما الى صاحبه ، واعتذر مسعود فقبل عذره وخلطه بنفسه في كل اموره .

وأما جيوش بك فانه سار وانتظر الملك مسعودا فلم يره ، فسار إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليمتنع بها فلما بلغه خبر اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود علم انه لامقام له ، فسار جريدة الى السلطان فأمنه وأكرمه ، وأخذ الموصل منه واقره على اذربيجان .

ذكر ولاية البرسقي الموصل

ثم ان السلطان اقطع آقسنقر البرسقي بلد الموصل واعمالها، كالجزيرة ، وسنجار ، ونصيبين وغيرها في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة وسيره إليها ، وامره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته ، فسار الى الموصل ، وفعل مع عماد الدين ما أمره به السلطان ، وزاد على ذلك لمكانه من العقل والشجاعة ، وتقدم والده في الأيام الركنية وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهم اكثرهم اتباعا لسيرته .

ذكر اقطاع عماد الدين زنكي مدينة واسط

في سنة ست عشرة وخمسمائة ، اقطع اتابك عماد الدين مدينة واسط وولي شحنكية البصرة ، وكان سبب ذلك ان الامير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والأمير جيوش بك ما ذكرناه ، فبلغ ذلك السلطان (محمود) وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه الى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالانحدار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة دبيس ، فانحدر اليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة فلقيه دبيس عند نهر بشير ، فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال ، وسبب ذلك انه رأى خللا في مسيرته وبها الأمراء البكجية ، فأمر أن تلقى خيمته وتنصب عند الميسرة لتقوى قلوبهم ، فحين القيت الخيمة رأت الميسرة ذلك فظنت الهزيمة فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي ، وقيل بل اعطي رقعة فيها أن جماعة من العسكر يريدون الفتك به ، فخاف على نفسه وساء ظنه ، وانصرف من مكانه وانهزم الناس ، وعاد الى بغداد ثاني ربيع الآخر ، فلما انهزم البرسقي لم يعرض دبيس لنهر ملك ولا غيره ، وأرسل الى الخليفة انه على الطاعة ، ويطلب أن يخرج الذواب الى الأعمال .

ثم أن السلطان ولى البرسقي شحنكية العراق جميعه ، وزوجه خاتون بهشت جهان والدة اخيه الملك مسعود ، واقام البرسقي ببغداد الى شعبان من هذه السنة ، وترددت الرسل بينه وبين دبيس في الصلح فلم يتم ذلك ، فأرسل دبيس عسكرا الى واسط - وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا معه - فلما سمع من بها بمسير عسكر دبيس اليهم ، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فأمدهم بالأمير التونتاش الأبري وبعماد الدين زنكي واقطعه البلد ، وامرهم بطاعته ، فصافوا عسكر دبيس فهزموهم واسروا أكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين إلى دبيس .

وأقام عماد الدين زنكي بواسط ، وارسل البرسقي إليه أيضا فولاه شحنكية البصرة وأمره بحمايتها ، فوليها وحماها ، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب اليها والاغارة عليها مرة بعد اخرى ، فلما سكنها لم يتعرض إليها أحد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه احد ، فازداد شأنه عظما .

وتجنب دبيس قصد ولايته لعلمه أنه لا ينال منها غرضا ، وأنفذ عسكرا نحو المدائن ، فخاف اهل بغداد ، وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي عازما على قصد دبيس ، وناهيك هذا شرفا لعماد الدين ، حيث يترك دبيس ولايته مع بعدها عن بغداد ويقصد المدائن وهي إلى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها .

وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب .

ذكر هزيمة دبيس وعسكر بغداد
وما ظهر لعماد الدين زنكي من الشجاعة

لما ورد دبيس وعساكره الى المدائن وعبر البرسقي الى الجانب الغربي ليسير اليه ، أرسل الخليفة المسترشد بالله الى دبيس ينهاه عن العصيان ، ويتهدده ان اصر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب دبيس وحلف ليقصدن بغداد وليخربنها ويقتل اهلها ، وجمع العرب واطمعهم في نهب بغداد فكثر جمعه . فلما علم الخليفة بما كان منه ، سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قباء اسود وعمامة سوداء وطرحة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب ، وعبر في الزبزب ومعه وزيره نظام الملك احمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل ، وقاضي القضاة الزينبي وغيرهم ، فلما سمع البرسقي

بمسير الخليفة ركب وعاد الى لقائه ، فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الأرض ، فلما نزل الخليفة في الخيمة ، أحضر البرسقي والأمراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة - وقد تأخر دبيس عن المدائن - فالتقوا بالمباركة من أعمال النيل ، ورتب البرسقي عسكره ، فجعل في الميمنة عماد الدين زنكي في عسكره ، والأمير أبا بكر الياس البكجي ، ووقف الخليفة في موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقراء بين يديه ، والمصاحف منشورة وتقدم إلى أهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم الف ختمة ودعوا له بالنصر .

فلما تواقفت العساكر ، حملت ميسرة دبيس - ومقدمها عنتر بن ابي العسكر - على الأمير أبي بكر الياس ومن معه ، فتراجعوا على اعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر ايضا حملة ثانية ، فكان حالها كالأولى ، واشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكي ذلك ، حمل في عسكر واسط على عنتر وأصحابه ، وأطبقوا (عليه) من خلفه ، وعاد الأمير ابو بكر ، فبقي عنتر ومن معه في الوسط ، فأخذوا باليد ، وقتل منهم الكثير ، وكان البرسقي قد جعل له كمينا ، فلما اشتدت الحرب ، ظهر الكمين من وراء عسكر دبيس ، فانهزمت العرب ومن معهم ودبيس ، فألقوا نفوسهم في النيل ، فغرق منهم خلق كثير سوى من قتل وأسر .

ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بميمنة البرسقي ، وأن من بها قد اشرف على الهزيمة ، جرد سيفه وتقدم وهو يكبر ، وقد عزم على أن يباشر الحرب بنفسه ، فكفاه عماد الدين زنكي فلما تم الظفر ، قدمت الأسرى إلى المسترشد بالله ، فأمر بقتلهم صبرا .

وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس واثني عشر الف راجل ، وعسكر الخليفة والبرسقي ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل ، ولم يقتل من عسكرهما غير عشرين فارسا .

ووقع نساء دبيس وسراريه في الأسر ، غير زوجته ابنة ايلغازى ابن ارتق وابنة عميد الدولة ابن جبير ، فإنهما كانتا بمشهد الحسين عليه السلام .

وكانت الوقعة في اول المحرم سنة عشرة وخمسمائة وعاد المسترشد الى بغداد فدخلها يوم عاشوراء .

وثار العامة ببغداد ، فنهبوا مشهد باب التين وماعند الضريحين ، وقلعوا أبواب المشهد ، فشكا العلويون ذلك إلى الخليفة فأذكره ، وسير نظر الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل ذلك والتذكيل به ، ففعل بهم ماأمر ، واسترد من النهيب ماأمكنه ورده على أصحابه .

وأما دبيس فإنه لما انهزم ، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود .

ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقي واتصاله بالسلطان محمود

قال : ولما فارق دبيس العراق ولحق بطغرل ، أمنت البلاد ، فأرسل السلطان محمود إلى البرسقي يأمره بالعود إلى الموصل والاشتغال بجهاد الأفرنج ، وولى شحنكية بغداد يرنقش الزكوي ، فعاد البرسقي في ستة سبع عشرة وخمسمائة .

وكان أتابك عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة ، فأرسل البرسقي إليه يعلمه الحال ، ويستدعيه ليسير معه إلى الموصل . فحدثني والدي قال : حدثني جماعة ممن كان مع الشهيد ، قالوا : جمع

الشهيد أصحابه وقال لهم : قد ضجرنا مما نحن فيه . وتارة بالموصل ، وتارة ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام فبم تشيرون أصنع ؟

فقال له زين الدين علي بن بكتكين – وكان أوثق أصحابه عنده وأكثرهم صحبة له – فقال : يامولانا ، التركمان تقول في أمثالها : إذا أراد الانسان (أن) يضع على رأسه حجرا فليكن من جبل كبير ، ولكن نحن إذا كنا لابد وأن نخدم الناس ، فلأن نخدم السلطان أولى ، فقبل رأيه ، وسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فلم ير منه ماكان يرجوه ، وأنفق ماكان معه من مال . وكان كلما ضاق به الأمر ، يقول لزين الدين : ياعلي ، قد وضعنا على رؤوسنا حجرا عظيما كما أردت . إلا أنه كان يقف إلى جانب تخت السلطان لايتقدمه أحد . فلما كان بعض الأيام ، ركب السلطان ليلعب بالكرة ، فدخل الميدان فأخذ الجو كان بيده ، واستدعى عماد الدين زنكي وناوله إياه ، وقال له : إلعب معنا ثم قال السلطان للأمراء معاتبا لهم وموبخا : أما تستحيون ، يجيء إليكم فلان – وهو من عرفتموه وعرفتم محل والده في الدولة – فلم يكن فيكم من يحمل له شيئا ولا يعمل له دعوة ، والله لقد تركته لم أرسل إليه نفقة ولاأعطيته إقطاعا لأنظر فعلكم . وبالغ في لومهم ، ثم قال له : قد زوجتك إمرأة الأمير كند غدي ، وأمر له بمال . وكان هذا كند غدي من أكابر أمراء السلطان محمد والسلطان محمود ، فجعله(السلطان محمود) مع اخيه الملك طغرل اتابكا له ومدبرا لدولته فحسن له العصيان على اخيه السلطان محمود وجمع له العساكر الكثيرة وعظم شأنه ، فاتفق أنه مات في تلك السنة ، وخلف ولدا صغيرا وزوجة ، ومن الأموال والدرك (٢) والسلاح مالا يقدر عليه إلا سلطان ، فلما كان الآن ، وقال لعماد الدين ليتزوجها ، أرسل إليها يقول لها : إنني قد زوجتك بعماد الدين زنكي ، فامتنعت ثم أجابت . فقال . فركب زنكي من غد دخوله بها ومعه ولد كند غدي ، وهو في موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كند غدي ، وأخرجت له زوجته من الخيام والدرك ماليس لأحد في العسكر مثله .

ذكر إقطاعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه في ذلك الوقت الخبر بأن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فأمر أتابك عماد الدين بالمسير إليها ، وأقطعه إياها لما كان بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي - وقت اختلاف العساكر والحروب - وأمره بالحفظ والاحتياط .

وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة قد باشر الحرب وأحب جمع العساكر ، وخوف ناحيته ، فتقدم إلى عماد الدين بمراعاة أحوال واسط والتطلع إلى معرفة حالها ، فإن قصدها عسكر من الخليفة يسير إليها ويحفظها ، فسار إلى العراق وأقام بالبصرة ، وأحسن السياسة لأهلها والحماية لهم من العرب وغيرهم ، فصار يرسل طوائف من عسكره فيوقعون بالأعراب ، فأمنت البلاد والطرق ، وواصل السلطان بأخبار العراق حتى لم يخف عليه منها شيء ، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده .

ذكر ولايته شحذكية بغداد

كان قد جرى بين يرنقش الزكوي شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفره ، فتهدده المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة ، شاكيا من المسترشد بالله ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازما على منعه عن العراق ،

وقال له : إن تاخرت عن العراق إزداد قوة ومنعك عن البلاد . فتجهز السلطان الى العراق ، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لايأتي بغداد هذه الدفعة لخراب البلاد والغلاء الذي بها ، وبذل له على تأخره مالا كثيرا ، فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر عن العراق وصمم العزم على الحركة .

فلما بلغ الخبر الى الخليفة عبر هو واهله وحرمه وأرباب المناصب الى الجانب الغربي في ذي القعدة . مظهرا الغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان . فلما خرج من داره بكى الناس بكاء عظيما ، واتصل الخبر بالسلطان فعظم عليه ، وأرسل إليه يستعطفه ويسأله العود إلى داره ، فاعاد الجواب : إنني أمرتك بالتاخر لخراب البلاد وهلاك الناس وعدم الاقوات ، ويقول له : إن قصدت العراق فنحن راحلون عنه بالاهل والمال . فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل الى بغداد ، فلما كان عيد النحر ، أمر المسترشد بالله بأن تنصب السرادقات والمنبر ، واحضر خواصه وأرباب المناصب وأعيان الدولة ، وصلى هو بالناس يوم العيد وخطبهم ، فبكى الناس لخطبته بكاء عظيما .

ثم إنه أرسل عفيفا الخادم في عسكر الى واسط ، وبها عماد الدين زنكي ، وكان قد سار من البصرة لحفظها والذب عنها ، فلما وصل عفيف ، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعود ، فلم يلتفت إليه ، وجاء حتى نزل بالجانب الغربي من واسط ، فعبر إليه الشهيد وقاتله قتالا شديدا ، فانهزم عسكر عفيف ، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ، وتجاوز عن عفيف حتى نجا ، ولو شاء لأخذه .

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعا إليه ، وسد أبواب الخلافة سوى باب الذوبي ، وأمر حاجب الباب ، ابن الصاحب ، بالمقام فيه يحفظ الدار ، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه . ووصل السلطان الى بغداد في عشرين من ذي الحجة ، ونزل بالشماسية ، ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس ، ولم يزل السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع ، وكان يجري بين العسكرين مناوشة ، والعامة من الجانب الغربي يسبون السلطان أفحش سب .

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة في المحرم

سنة عشرين وخمسمائة ، ونهبوا التاج وحجر الخليفة ، وضج اهل بغداد . فلما رآهم الخليفة ينهبون داره ، خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى باعلى صوته : يآل هاشم ، وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر العسكر دفعة واحدة . وكان في الدار الف رجل مختفين في السراديب فظهروا - وعسكر السلطان قد اشتغلوا بالنهب - فاسروا جماعة من الامراء . ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ، ودار عزيز الدين المستوفي ، ودار حكيم اوحد الزمان الطبيب ، وقتل منهم خلق كثير في الدروب . ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من أهل بغداد والسواد ، وحفروا الخنادق في الليل ، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ، واشتد الغلاء عند العسكر ، وعظم القتال كل يوم على أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة .

وعزم عسكر الخليفة على تبييت عسكر السلطان ، فغدر بهم الامير أبو الهيجاء الكردي الهذباني صاحب إربل ، وخرج كأنه يريد القتال والتحق هو وعسكره بالسلطان .

وكان السلطان قد ارسل الى عماد الدين زنكي يامره ان يحضر بنفسه ، ومعه المقاتلة في البر والماء ، وان يكثر من السفن مهما أمكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة الا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء ، فلما قارب بغداد نشر الاعلام ، واظهر السلاح ، وأخرج بعض من في السفن الى البر فامتلات الارض والماء رجالا وسلاحا ، فرأى لناس منظرا عجيبا وعظم ذلك في أعينهم ، وركب السلطان والعساكر فرأوا ماملأ قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة ، واستدل على كفايته ونهضته وحسن سياسته ، لان البلاد التي كانت بيده لم يكن عسكرها يقدر يفارقها ليحفظوها ، فاخرج منها هذا الخلق الكثير ، ولم يتعرض اليها أحد باذى .

وكان الخليفة ـ لما هرب الامير ابو الهيجاء وبلغه مجيء عماد الدين ـ قد ضعفت نفسه ، وعلم أن عماد الدين يجيء ويقاتلهم في الماء ويمنع الميرة عنهم ، ويقاتلهم السلطان في البر فيعظم عليه الخطب ، فحينئذ راسل السلطان طلبا في الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا وعادا الى ما كانا عليه ، واعتذر السلطان مما جرى . وكان حليما يسمع سبه بانه ولايعاقب عليه . وعفا عن أهل بغداد جميعهم . وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار باحراق بغداد فلم يفعل ، وقال : لاتساوي العراق بعض هذا . ولما تم الصلح ، أقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الاخر ، وحمل الخليفة اليه كل ما استقرت القاعدة عليه من المال ، والسلاح ، والخيل وغير ذلك .

فلما اراد السلطان الرحيل ، نظر في من يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ويضبط الامور ، فلم ير في امرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه من الاتساع ، وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنكية العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع ، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث اسنده إلى الكافي القيم بأمره .

ذكر قتل البرسقي وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

في سنة عشرين وخمسمائة ، قتل آقسنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية . وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه الباقون أذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة ايام ، فقال : لااترك الجمعة لشيء أبدا ، وكان يشهدها في الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته ،

فثار به من الباطنية مـا يزيد على عشرة أنفس ، فقتـل بيده منهـم ثلاثة ، وقتل رحمه الله .

وكان خيرا عادلا ، لين الاخلاق ، حسن العشرة مع اصحابه . حكى لي والدي رحمه الله تعـالى ، قـال : حـكى بعض الغلمـان الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي كل ليلة صـلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولايسـتعين بـأحد ، قـال : فـرأيته بعض ليالي الشتاء بالموصل ، وقد قام من فراشه ، وعليه فرجية وبـر صـغيرة وبيده ابريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، فلما رأيته قمت إليه لأخذ الابريق من يده ، فمنعني وقال : يا مسكين إرجع الى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لآخذ الابريق من يده فلم يفعـل ، ولم يزل حتى ردني الى مكاني . ثم توضأ ووقف يصلي . وذكر لي مـن أحواله الحسنة أشياء لم أطول بذكرها .

ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لما قتل البرسقي ، قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود ، وارسل الى السلطان يطلب ان يقرر البلاد عليه ، فاجابه الى ذلك واقره على ما كان لأبيه من الاعمال ، فضبط البلاد وقام فيها المقـام المرضي ، وكان شابا عاقلا ، فجمع عساكر أبيه وأحسن إليهـم ، وكان يدبـر الامر بين يديه الامير جاولي ـ وهـو مملوك تـركي مـن ممـاليك أبيه ـ وكان أيضا عاقلا حسن السيرة ، فجرت الامور على أحسن نظام ، فلم تطل أيامه ، وأدركه في عنفوان شبابه حمامه وتوفي سـنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، فولى بعده أخوه الاصغر ، وقام بتدبير دولته جاولي أيضا ، وأرسل إلى السـلطان يطلب أن يقـرر البـلاد عليهم ، وبذل أموالا كثيرة .

ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكي الموصل وسائر بلاد الجزيرة

نبتدىء قبل ذكر ملكه للبلاد ، بذكر الحال التي كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الاسلام أيديهم ، وضعف اهلها من كف عاديتهم ، وتتابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب ، واستطار في البلاد شرر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكدرة ، وسماء عزهم مذفطرة ، وشمس إقبالهم مكورة ، ورايات المشركين خلال ديار الاسلام منشورة ، وأنصارهم على أهل الايمان منصورة .

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين ، وشبختان الى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماه ، ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد . ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستاصلوا ما لاهلها من أثاث وعين .

وأما الرقة وحران ، فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكني القبور .

وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا ، ويخاطرون بالقرب من العرب بأموالهم وأنفسهم .

ثم زاد الأمر ، وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا وأتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقنعوا بذلك ، حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود الى أوطانهم ، والرجوع إلى أهليهم وأخوانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود إلى أهله اخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا ، وللكافرين قدرة واقتسارا .

واما حلب فانهم اخذوا مناصفة اعمالها حتى في الرحا التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة .

واما باقي بلاد الشام ، فكان حالها أشد من هذين البلدين .

فلما نظر الله تعالى الى ملوك البلاد الاسلامية وأمراء الملة الحنيفية ، وما هم فيه من العجز عن نصرة الدين ، والوهن في حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله ، إرتاع للاسلام واهله ، واذف لهم من ذلال عدوهم لهم واسره وقتله ، فحينئذ اراد ان يسلط على الفرنج من بسوء افعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصلبان رجوما منه تهلكها وتفنيها ، فنظر في جريدة شجعان أوليائه ، وذوي الراي والنجدة والشهامة من اصفيائه ، فلم ير فيها أقوى على هذا الامر من المولى الشهيد عماد الدين زنكي ولا أثبت جنانا ، ولا امضى عزما ، ولا أنفذ سنانا ، فولاه الثغور ، ورعاية الجمهور ، كما يقول القائل :

رماها بحرب منه حتى كانما
بدعوة نوح في العصاة رماها
اخي الحرب يصليها بنفس كانما
تزاحم في ضنك الوغى بسواها
كتائب تزهى بالفتوح كأنما
تباري النجوم الطالعات قناها

ففزا الفرنج في عقر ديارهم ، وأخذ الموحدين منهم بثأرهم فأصبحت أهله الاسلام مبدرة بعد شرارها ، وشموس الايمان منيرة بعد طموس أنوارها ، وماس المسلمون في حلل من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهل التثليث حصونا ومعاقل ، وجازوهم بما اسلفوا من الدخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالديار الجزرية والشامية جرانه ، وبث فيها أنصاره واعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال ، ياأهل الشرك لاعاصم اليوم من أنصاري ولا وزر . فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة مزقت من الشرك شمله ، وستري ما أجملناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا ، هذا سوى مكارم أخلاق أدرع جلبابها ، وحسن سياسة إعتلق بمحكم أسبابها ، يرد ذكرها عند قتله قدس الله روحه ونور ضريحه .

وأما ملكه البلاد ، ففي شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . قال : تولى عماد الدين زنكي بن آقسنقر الموصل ، وديار الجزيرة ، ونصيبين وما كان بيد البرسقي . وكان سبب ذلك أن عز الدين مسعود بن البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده اخوه ، وتولى أمره جاولي ، أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلاد عليه ، كما ذكرنا . وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين أبا الحسن على بن الشهر زوري وصلاح الدين محمد الياغيسياني ، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته والتصرف بحكمه ، فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر ـ الذي كان أعظم اصحاب أتابك زنكي منزلة ـ وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة ، فذكر له صلاح الدين ما قدم له ، فخوفه نصير الدين ، من جاولي وتحكمه على صاحبه ، وقال له : إن رأيت أن تطلب البلاد لعماد الدين فهو الراي ، لان السلطان صورة وأنا وأنت معنى ، فأجابه إلى ذلك وأخذه إلى القاضي بهاء الدين ابن الشهروزري وتحدثا معه ووعده نصير الدين ومناه ، وضمن

له عن عماد الدين من الأملاك والاقطاع والوقوف على اختياره ماجاوز أمله ، فأجاب بهاء الدين أيضا ، وركب هو وصلاح الدين الى دار الوزير - وهو حينئذ أذو شروان بن خالد - فقال له : قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج (عليها) وتمكنوا منها وقويت شوكتهم ، وقد كان البرسقي يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم ، وهذا ولده طفل ، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها ، وقد أنهينا الحال إليك ، لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين ، فنحصل نحن بالاثم من الله ، واللوم من السلطان ، فأنهى الوزير ذلك الى السلطان، فقال : من تريان يصلح لهذه البلاد ، فقد نصحتما لله تعالى وللمسلمين ، فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي ، وعظما محله أكثر من غيره فمال السلطان الى توليته ، لما علم من شهامته وكفايته وعقله ولما تولاه ، وأمرهما بالحضور عنده ، وفصل الحال في خدمة يحملها ، واستقر الحال وولاه البلاد جميعها ، وكتب منشوره الى بغداد .

وسار زنكي الى البوازيج ليملكها ويتقوى بها ، ويجعلها ظهره إن صده جوالي عن البلاد ، فلما استولى عليها سار عنها الى الموصل ، فحين أن اتصل خبر وصوله بجاولي ، خرج إلى لقائه ومعه العسكر جميعه ، فلما رأى الشهيد ، نزل عن فرسه وقبل الأرض ، ثم قبل يده وعاد في خدمته ، فأقطعه الشهيد الرحبة وأعمالها وسيره إليها ، وأقام هو بالموصل إلى أن يصلح أمورها ويقرر قواعدها ، فولى نصير الدين دزدارية الموصل وفوض إليه أمر الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية في البلاد لنصير الدين أيضا وجعل صلاح الدين الياغيسياني أمير حاجب ، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها ومايفتحه من البلاد ، ووفى لهم بما وعدهم ، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الأمور على أحسن حال وأحكم قاعدة .

ذكر ملكه جزيرة ابن عمر

لما فرغ الشهيد رضي الله عنه من أمر الموصل ، وتقرير قواعدها (حشد)الجنود وأقطع العساكر(ثم) سار نحو جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها بعض مماليك البرسقي ، فامتنع بها ثقة بحصانتها وظنا منه أنها تحميه ، فراسله عماد الدين وبذل له ورغبه فلم يصغ الى ذلك ، فحينئذ جد الشهيد في قتالها ، وبينه وبين البلد الدجلة فأمر الناس فألقوا أنفسهم في دجلة ، بعضهم سباحة ، وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين البلد وبين دجلة تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فاقتتلوا هم والعساكر قد عبروا الماء ، فانهزم عسكر الجزيرة ، وملك عسكر عماد الدين ، فلما رأى من بالبلد ذلك ، ايقنوا أن البلد يؤخذ عنوة إن لم يأمنوهم ، فأرسلوا الى عماد الدين ـ وكان قد عبر دجلة أيضا مع عسكر ـ وطلبوا منه الأمان وقاعدة تقرر بينهم ، فأجابهم الى ذلك ، وتسلم البلد ودخله هو وعسكره ، فاتفق أن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة ، حتى التصق الماء بسور البلد وصعد فيه أكثر من قامة ، واستترت الزلاقة بالماء ، فلو تأخر دخول الشهيد الى البلد يومهم ذلك ، لغرقهم الماء عن آخرهم ولم ينج منهم أحد ، فلما رأى ذلك الناس ، أيقنوا بسعادته وعلموا أن أمورا ـ هذه بدايتها ـ لعظيمة •

ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار

قال : فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر ، سار عنها الى نصيبين ـ وكانت لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وغيرها ـ فلما نازلها الشهيد ، سار حسام الدين الى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده على

دفع أتابك عن نصيبين ، فوعده النجدة وجمع عساكره ، وعاد حسام الدين الى ماردين ، وسير رقاعا على أجنحة الطيور الى نصيبين ، يعلم من بها من الأجناد أنه وابن عمه ركن الدولة سائران في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ثلاثة أيام ، فبينما أتابك الشهيد في خيمته إذ رأى طائرا قد سقط على خيمة تجاورها ، فأمر بصيده فاصطيد ، فرأى فيه رقعة ففتحها ، واذا هي الرقعة المذكورة ، فأمر فكتب غيرها ، يقول فيها : من حسام الدين ، إنني قد قصدت ابن عمي ، وقد وعدني بالنصرة والمسير في العساكر ، ومايأتخر وصوله الينا أكثر من عشرين يوما ، ويأمرهم بحفظ البلد في هذه المدة ، وشدها على جناح الطائر وأرسله ، فلما رأى من فيه الرقعة ، خافوا على نفوسهم ، وعلموا أنهم يعجزون عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعوه وسلموا إليه القلعة ، فبطل على داود وتمرتاش ماكانا عزما عليه ، وقد جرى مثلها للمولى السعيد نور الدين أرسلان شاه على نصيبين أيضا سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها .

قال : فلما تسلم الشهيد نصيبين ، سار عنها إلى سنجار فامتنعت عليه وقاتله من بها ، ثم إنهم سلموها إليه واتصلوا بخدمته ، وسير منها الشحن الى الخابور فملكه جميعه ، ثم سار إلى حران ـ وكانت الرها وسروج وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله ـ وأهل حران معهم في ضيق عظيم ، لخلو البلاد من حام يذب عنها أو سلطان يمنعها فلما سمعوا بملك الشهيد البلاد واستيلائه عليها ، واذعان من بها إليه ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد أتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فراسلوه بالطاعة ، واستحثوه على الوصول إليهم ، فسار نحوهم مجدا حتى نزل بساحتهم ، فاستبشروا بقدومه وخرجوا إلى لقائه ، فوعدهم ومناهم .

وأرسل الى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التي بيد

الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة ، يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء ، على مابقي له من البلاد الشامية والجزرية ، واصلاح شأنها ، والفراغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم .

وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية ، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسلين على مااختاره .

ذكر ملكه مدينة حلب وحماة

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الاسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها وقصدوا محاصرين لها لخلوها من حام ومانع ، وقد قوي طمعهم في ملك مابقي في يد المسلمين من البلاد ، لايعلمون ماأعده الله سبحانه في سر الغيب ، وماقدره من الانتقام منهم وادالة المسلمين عليهم ،ليذهب (غيظ قلوبهم) (ويشف صدور قوم مؤمنين) (التوبة ١٤ ـ ١٥)

وكان الفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان، بينها وبين المدينة أذرع يسيرة ، فلما سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم ، راسلوه يستغيثون به ويستنصرونه ، وأذعنوا له بالطاعة ، فسار إليهم فلما عبر الفرات ، ملك مدينة منبج ، وحصن بزاعة وسار الى حلب ، فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به مالايعلمه إلا الله سبحانه تعالى ، وكان ملكه لها سنة اثنين وعشرين وخمسمائة ،

ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد ، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فإنهم كانوا لهم من أتابك طغدكين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم ، وكانوا متى حصروا

حلب وغيرها جمع طغدكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدر الله تعالى أنه توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمدرة ، وصح قول النبي صلى الله عليه وسلم : لم تخل البلاد من قائم لله بنصر دينه ، ولطف الله بالمسلمين بعده ، وولى الشهيد قدس الله روحه ، ولما ملكها أقام بها ليقرر قواعدها ، ويصلح أمورها ، ويعمر ماخرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليها ، ففرغ من جميع ماأراده .

وفي سنة ثلاث وعشرين (وخمسمائة) سار الى حماة فملكها .

ذكر الحرب بين الشهيد أتابك وبين الملوك الأرتقية وملك مدينة سرجة ودارا وما إليهما .

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، اجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره ، وحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي - وهو ابن عم داود - وانضم اليهما صاحب آمد وغير من ذكرنا ، وجمعوا من الأمراء من انتهت قدرتهم الى جمعه ومن العساكر والتركمان، وكان داود مطاعا في التركمان ، حتى أن دشابته كانت اذا وصلت حلة منهم ، تبرك بها رجالهم ونساؤهم فاستمدهم واستنجدهم ، فجاءوه على الصعب والذلول ، فاجتمعوا في نحو عشرين الف مقاتل ، وسار إليهم الشهيد ولقيهم بالقرب من دارا - وهي لهم أيضا - فاقتتلوا قتالا شديد ، صبر (فيه) عسكر الشهيد - وهم نحو أربعة آلاف فارس - لشجاعتهم ، وصبر عسكر الأرتقية لكثرتهم ، ثم انجلت الوقعة عن هزيمة الأرتقية ، فلما انهزموا حصر سرجة فملكها وانتقل إلى دارا فملكها أيضا . فحكى لي والدي ، قال : لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومعه من سلم من عسكره ، فقصد بلد جزيرة ابن عمر فنهبه وأخربه ، وبلغ الخبر إلى أتابك فسار نحو الجزيرة ، وأراد

أن يتبعه إلى ديار بكر ، فلم يمكنه لضيق المسالك وخشونة الطريق بها ، ومع هذا فجميعها لداود ، فخاف أن يمسك عليه المضايق وينالـه أذى ، ثم إنه صالح القوم وعاد عنهم •

ذكر فتح حصن الأثارب من الفرنج

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه ، من أمر الملوك الأرتقية وصالحهم وأمن ناحيتهم وسار إلى الشام وقد جمع واحتشد وأعد واستعد ، وصمم العزم على الجهاد ، وإجلاء أهل الزيغ والعناد ، وإعلاء كلمة الله تعالى ، وإدحاض كلمة الشيطان ، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الصلبان ، وقصد إلى حصن الأثارب ونازله ، وأنزل بأهله التثريب ، وعم بلادهم بالنهب والاحراق والتخريب • وكان هذا الحصن أضر شيء على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج مابين حزب وحرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هو من أخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين في نحورهم ، فتابع الشهيد ، وأدمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب من كل مكان ، ولاذ من به من سطوته وبأسه بالجدران ، وعمهم الرعب فصاروا يحسبون كل صيحة أنى يسلكون ، وسقط في أيديهم وضل عنهم ماكانوا يفترون ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم وأحسنوا الذب عنهم وعنه . فلما علم ملك الفرنج الحال ، جمع الفرسان الفرنجية واستشارهم في الذي يصنعون ، وبأي حيلة في دفعه عن بلادهم يدافعون فأما أهل الغرة والجهل فهو نوا حاله ، وبذلوا من انفسهم قتاله ، ظنا منهم أنه كمن تقدم من الملوك ، لايستعملون غير الفرار من الزحوف ، والاحتماء بعريض الأسوار لابحداد الأسنة ورقاق السيوف ، فعارضهم بعض من حضر من شياطينهم وذوي الرأي والتجربة من طواغيتهم ، وقال : إني أرى شرار سيكون له ضرام ، ودخانا تحته شواظ ، أليس هذا الغضنفر الذي أثر في طبرية بمفرده ماأثر ، فكيف به اليوم وهو في عدة وعديد ، ومتطوعة وجنود ، فالقوا قناع التواني ،

ولاتسيروا إلى دفعه سير السواني(٢٣) ، فلابد لهذا العارض أن يملأ بسيله الوادي ، ولهذه النار أن تعم بشررهـا النادي ، ولهـذا الاقدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبادي ، ولئن لم نذقه بجمـوع ننتصف منه بها ، ونلحقه بمن تقدمه من مقـدمي الجيوش ، ليكونن لنا منه يوم عصيب ، وليأخذن المسلمين منا بأوفر نصـيب ، فحينئذ إهتموا بجمع الفرسان والأجناد ، وأحضروا من في أطراف البلاد ، وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعـاصي ، وأقبلوا في جمـوعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبنودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم ، وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها ، وامتلأ منهم شمالها وجنوبها ، هذا والرعب قد ألقاه الله في قلوبهم فهم منه وجلون ، والخـوف قـد عم رئيسـهم ومرؤوسهم فهم منه خائفون ، يقدمون في مسيرهم رجلا ويؤخـرون أخرى ، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأحرى ، لكن آجالهم تسوقهم إلى مصارعهم ، فهم نحوها يبرزون ، وكأنمـا يسـاقون إلى الموت وهم ينظرون .

فلما تدانى الزحفان استشار المولى الشـهيد وزراءه وأمـراءه ، فأشار أكثرهم بالعود إلى حلب ، ومطاولة الفرنج إلى أن يتفرقوا ، فقال : هذه خطة خسف تجرئهم علينا ، وتطمعهم فيمـا لدينا ، لكن الرأي أن نستعين بالله عليهـم ونلقـاهم ، فإمـا لنا وإمـا علينا ، وتأهب للقائهم ، وسار إلى تلقائهم ، فلم يبعد حتـى وافـاهم ، ولم يغب الحصن عنه حتى أتـاهم ، ونشـبت الحـرب بين الفـريقين ، واشتد الطعن والضرب بين الطائفتين ، وحمـي الشـهيد للاسـلام وانتصر ، ولبس لأعدائه جلد النمر ، وصال عليهم وزأر ، وقال لهـم ذوقوا من سقر ، وظل يوسعهم بحملاته حطما ، ويستأصل أركانهم هدما ، ويحرض أصحابه ويدمنهـم ويتتـابع الحمـلات عليهـم بأمرهم .

فحيث رأى الفرنج ماقد أحاط بهم من البلاء ، وعمهم من الشدة واللاواء ، علموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب ، وأنى لهم ذلك

وقد علقت معالقها وصر الجندب (٢٤) وحيل بينهم وبين مايشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، وكثر فيهم الأسر والقتل .

فلما تعذرت عليهم الهزيمة ، حموا انفسهم اللئيمة ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ، والجلاد عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات ، والاخوان والأخوات ، فحينئذ صدقوا القراع ، وأحسنوا المصاع ، وصال ملوكهم وقمامصتهم وفرسانهم وداويتهم وقاتلوا قتال من أيس من النجاة بالانهزام ، فطلبهم بصدق القتال والاقدام ، ولقيهم الشهيد لقاء محتسب للآخرة .

فأثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر

فقلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام ، وأجلت الوقعة عن رؤوس بلا غلاصم ، وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغمادا ، وأدركت خيله منهم ثأرا وأحسنت جلادا ، وأمر الشهيد فيهم بالاثخان ، ومنع من الأسر واعطاء الأمان ، فملأت جثث القتلى تلك الصحراء في الطول والعرض ، وتأول قوله تعال (ماكان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الأرض (٢٥) وقصد ان يملأ قلوبهم رعبا ، ويذعرهم عن البلاد سربا سربا ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملا أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى موئلا. فلما استمر له النصر ، وآل به الى الظفر الصبر ، رجع الى الحصن فملكه عنوة وقهرا ، وعم كل من فيه قتلا وسبيا وأسرا ، ولقد سمعت من يحكي ان عظام القتلى لم تزل بتلك الأرض مدة طويلة ، ولما ملك الحصن أخر به ومحا أثره ، وأزال من تلك الأرض ضرره ، كما قال فيه الشاعر حيث يقول :